أهم مظاهر الكسل

١ - الكسل الاجتماعي :

المجتمع يتكون من مجموعة الأفراد الذين يتم بينهم التعايش على أسس معينة ، وقوانين محددة ، وإذا قام كل بدوره ، وعرف كل عضو واجبه تكاتفت الجهود ، وتعانقت الآراء ، وتلاقحت الأفكار ، وقام المجتمع خير قيام، يُحفظ كيانه ، وتقوى هيبتُه ، ويعظم قدره ، وإذا تخاذل الأفراد ، ونكص كل على عقبه ، وانطوى الواحد على نفسه ، وتخاذل عن دوره ، تفكك المجتمع ، وتصدعت الأمة ، وتشتت الجهود ، وتبعثرت الأفكار ، ودب الوهن ، وتسلل التخاذل ، وضعفت الهيبة ، وانتهكت الحرمات ، ونيلت الكرامة ، وكثر التنازع ، وحل الفشل ، وذهبت الريح ، ولذلك كله دعا الله جل وعلا عباده أن يكونوا صفاً واحداً ، ومجتمعاً مترابطاً ، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ . [البقرة : ١٠٣]

obeikandl.com

ويقول ﷺ : « يد الله مع الجماعة » . [الترمذي : ٢١٦٦]

ويقول ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » . [أخرجه البخاري ومسلم]

ويقول ﷺ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوما » .

[أخرجه البخاري : ٢٤٤٣]

ويقول ﷺ : « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » . [أخرجه البخاري ومسلم]

ومن الكسل الاجتماعي التهاون بالمعاصي ، والرضا بالمنكرات ، والإغضاء عن الزلات ، والغفلة عن معاول الهدم، والتجاهل لفؤوس الخراب ، التي تنهك القوى ، وتَحُل العرى ، وتعجل الردى ، والأصل في المجتمع أن يهب في صد الطغيان ، ويصرخ في وجه العاصي ، ويتمعر لرؤية المنكر ، ويقف يداً واحدة في كبح جماح الرذيلة ، وإلى ذلك يشير قوله ﷺ : « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين في أسفلها

إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » . [أخرجه البخاري : ٢٤٩٣]

وفي هذا المعنى أيضاً حديث آخر عنه ﷺ يحثُّ فيه على عدم التهاون مع المفسدين ، أو الإغفاء عن المارقين ، بل يجب أن يؤخذ على أيديهم ، ويقصروا على الحق ، ويمنعوا عن الباطل في قوة وحزم ، وجدية وعزم :

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقصُ على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » . ثم قال : ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ**

لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ . ثم قال : « كلا ، والله لتأمرون بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنّهُ على الحق أطراً ، ولتقصُرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعننكم كما لعنهم » .

[رواه أبو داود : ٤٣٣٦]

وإن الكسل الاجتماعي مخالفة لقوله جل وعلا : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ .

[المائدة : ٢]

والكسلان ثُقلٌ على المجتمع ، عارٌ على الأمة ، عبءٌ على الحياة ، وأهل البطالة والعطالة أموات غير أحياء ، وأشباح بلا أرواح ، أناخوا في مبارك اللهو والكسل ، وخيموا في أودية الغرور ومتاهات الأماني ، لا خير فيهم يرجى ، ولا نفع منهم يؤمل ، فهم دائماً في سكرتهم يعمهون ، ويكفيهم عاراً وشناراً ، وذلاً وصغاراً أنهم

اتسموا بسمة النفاق ، واتصفوا بصفة الضلال ، فإن الكسل من أبرز صفاتهم ، وأصدق سماتهم ، ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [التوبة : ٨٨] ، فالكسالى دائماً يجتهدون في إبداء الأعذار ، وإسداء الحجج ، يعتذرون بالحر ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ ويتحججون ببعد المسافة ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ .. ﴾ [التوبة : ٤٢] ، ويتعللون بالانشغال بالأهل والأولاد ﴿ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا .. ﴾ ، فهم دائماً متخاذلون عن الجماعة ، متقاعسون عن الواجب ، مخذلون للصفوف ، مثبطون للهمم ، مفترون للعزائم .

وقد يكون بعض الناس نشيطاً فيما يهمه ، جاداً في مصالحه ، أما لإخوانه فهو بطيء متثاقل ، ولمجتمعه فهو كسول متخاذل .

٢ - الكسل العلمي :

قال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ فالعلم طريق الرفعة، وسبيل العزة ، وعنوان الريادة ، وبستان السعادة . « وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء » . [أخرجه الترمذي ابن ماجة]

وفضل العالم على العابد كفضل النبي ﷺ على أدنى أصحابه ، فالعلم تركة الأنبياء وتراثهم ، وأهله عصبتهم ووراثهم ، وهو حياة القلوب ، ونور البصائر ، وشفاء الصدور ، ورياض العقول ، ولذة الأرواح ، ولقد أعلن القرآن منذ الوهلة الأولى لنزوله أن هذا الدين دين العلم والمعرفة ، والقراءة والتدبر : ﴿ اقْرأْ باسْمِ ربّكَ الَّذي خلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ منْ علَقٍ (٢) اقْرأْ وربُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي علَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) علَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

ولقد بلغ المسلمون من العلم شأواً كبيراً ، ومنزلة سامقة ، ورتبة عالية ، ولو أنهم كسلوا وتهاونوا ،

وغفلوا وتقاعسوا ، ما وصل إلينا هذا التراث الخالد ، والرصيد الهائل.

لقد كانوا محطَّ أنظار الناس ، ومحل إعجابِ الدنيا ، لما وصلوا إليه من رقي في العلم ، وسمو في الفكر ، ومنزلة في المعرفة ، أشرقت بهم الدنيا ، واستنار بهم العالم ، وتفتحت بهم الأذهان ، وتفتقت بهم الأفكار ، فلما تخاذل المسلمون عن العلم ، وتنكبوا طريق الفكر ، وأخلدوا إلى الأرض ، واتجهوا إلى الشهوات ، ومالوا إلى اللذات، ورضوا بالذل ، واستساغوا التبعية ، وناموا في أحضان الكسل ، خطف الراية منهم غيرُهم ، وسلك سبيل العلم سواهم ، فوجدوا تراثاً خالداً ، وعلماً هائلاً ، فاستقوا من معينه ، وارتووا من ينابيعه ، ثم مضوا في عزم وإصرار ، وقوة وطموح ، فقطفوا ثمار العلم اليانعة ، وأزهاره الماتعة ، وصلوا إلى القمة ، وهيمنوا على الدنيا ، وتصدروا البشرية ، والمسلمون لا يزالون يقبعون في ظلام مطبق ، ويعيشون في ركود فاحش ، وينغمسون في كسل مرير ، وينظرون إلى أولئك في ذهول وإكبار ، وتعجب

وإعجاب ، كيف صنعوا الطائرة ، وأوجدوا السيارة ، وابتكروا الكمبيوتر ، واكتشفوا الذرة ، وصعدوا إلى الفلك .. وكأن العقول غيرُ العقول ، والأجناسَ غيرُ الأجناس ، وما من سبب هنالك ، ولا سرٍّ لأولئك إلا العلم، فأين ورثة الأنبياء ، وأبناء العلماء ، وأحفاد النجباء، أما آن لهم أن ينفضوا غبار الجهل ، ويمزقوا ستار الكسل ، ويحيوا جذوه العلم، ويشعلوا مصابيح الفكر ، فهم أحق بها وأهلها .

إذا صغرت نفس الفتى كان شوقه
صغيراً فلم يتعب ولم يتجشم
ومن كان جبارَ المطامح لم يزل
يلاقي من الدنيا ضراوة قشعم

إن واجب المسلمين أن ينهضوا بالهمم العلمية ، والعزائم الفكرية ، وأن يطرقوا أبواب المعرفة في شتى المجالات ، وكل التخصصات ، كما كان آباؤنا سبّاقين لأنواع العلوم ، وأفنان التجارب ، فهم أهل السبق في الطب والفلك والرياضيات والاجتماع ، إلى جانب الإبداع

في العلوم الشرعية ، وأمة الإسلام بحاجة إلى همم علمية رائدة ، وعقول مبتكرة راشدة ، وسوف أذكر هنا نماذج من رواد العلم ، وأساطين الفكر ، وذلك في الجانب الشرعي فقط ، مع أننا أرباب السبق في شتى المعارف ، وألوان الفنون ، ولذلك أقول :

أيُّ شيء أسدى لنا الغرب لما
يتباهى بالسبق والإرتقاء
ليس معنى الرقي علماً خشيباً
لم تلامسه روعة الأتقياء
ما الذي قدموه إلا سقوطاً
ووحولاً منٍ الخنا والبذاء
وضلالاً مضللاً وفجوراً
أمطرتها أقمارهم بالفضاء
المقيمون للدنايا حصوناً
وقصوراً لعارضات البغاء
نحن كنا الرواد للمجد دهراً
يوم كانوا على الثرى كالهباء

obeikandl.com

نعــمــر الأرض بالســجــايا ونبني
شــامــخــات من الرضــا والرواء
كــان منـا الأفــذاذ في كـل فن
في المبــاني والطب والفــيــزياء
وحكمنا بالعــدل ، مــا كــان منا
أيٌّ ظـلـم أو لُـوثـةٌ مـن عــــداء
وبلغنا الجــوزاء لما مــضــينا
بـاتزان وحـكـمــة واقــتـــداء

وهذه بعض النمـاذج الفـذة من تاريخ أرباب الهـمم الشامخة ، والعزائم السامقة ، نسوق طرفاً منها لأخذ العبرة ونيل العظة ، وتذكير النفوس ، وإحياء القلوب ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ . [يوسف : ١١١]

هذا معاذ بن جبل رضي الله عنه حينما حضرته الوفاة قال : « اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لكري الأنهار ، ولا لغرس الأشجار ، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل ، ولظمأ الهواجر في الحر الشديد ،

obeikandl.com

ولمزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَقِ الذِّكْر» .

ومعاذ بن جبل هو سيد العلماء ، إذا حضر العلماء يوم القيامة يأتي معاذ قبلهم برمية حجر ، مع أن مدة تحصيله للعلم هي حوالي عشر سنوات ، ولكنها الهمة العالية! .

وهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : «والذي لا إله غيره ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أُنزلَتْ آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه .

وهذا جابر بن عبد الله رضي الله عنه يرحل إلى الشام من أجل حديث واحد من أحاديث المصطفى ﷺ ، رحلة رواحها شهر وغدوُّها شهر .

وهذا الشعبي – رحمه الله – المتوفى عام [١٠٣ هـ] خرج من الكوفة إلى مكة المكرمة في طلب ثلاثة أحاديث .

وهذا عطاء بن أبي رباح – رحمه الله – كان أسود

أعور أفطس أشلّ أعرج ، ثم عمي ، كان ركناً من أركان العلم ، وأميراً للمؤمنين في الحديث ، وكان فراشه في المسجد عشرين سنة لتحصيل العلم . وحج أكثر من سبعين حجة ، وأسندت إليه الفتوى في عهد بني أمية .

وهذا سفيان الثوري رحمه الله بلغ عدد شيوخه ستمائة شيخ ، وعدد الرواة الذين رووا عنه يربوا عن الألف .

وهذا علي بن عاصم مُسْنِد العراق ، أعطاه أبوه وهو شاب صغير مائة ألف درهم ، وقال له : اذهب ولا أرى لك وجهاً إلا بمائة ألف حديث ، فعاد إلى والده بمائة ألف حديث ، وكان يجتمع إليه من الطلاب ثلاثون ألفاً .

وهذا شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك – رحمه الله – حمل العلم عن أربعة آلاف شيخ .

وهذا علم الأعلام وإمام أهل السنة في الإسلام الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – المولود ببغداد سنة ١٦٤ هـ رحل إلى بلاد كثيرة جداً ، وكان يحفظ ألف ألف

حديث، يقول عن أسفاره : رحلت في طلب العلم والسنة إلى الثغور والشامات ، والموصل والمغرب ، والجزائر، ومكة ، والمدينة ، والحجاز ، واليمن ، والعراقين جميعاً ، وفارس ، وخراسان ، والجبال ، والأطرف ، ثم عدت إلى بغداد .

وهذا يحيى بن معين - رحمه الله - الإمام الحافظ شيخ المدينة يقول : كتبت بيدي ألف ألف حديث ، وهو الذي يقول لو لم نكتب الحديث خمسين مرة ما عرفناه .

وهذا أمير المؤمنين في الحديث - رحمه الله - وصاحب أعظم كتاب في الإسلام بعد القرآن ، وهو محمد بن إسماعيل البخاري ، يقول : أخرجت هذا الكتاب من زُهَاء ستمائة ألف حديث ، وما وضعت في كتابي حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين ، ويقول : كتبت عن ألف شيخ ، ورويت عن كل واحد منهم عشرة آلاف وأكثر ، وما عندي حديث إلا أذكر إسناده .

وهذا الإمام الحافظ ابن أبي حاتم الرازي المتوفى عام

obeikandl.com

[٢٢٧ هـ] ، يقول : وأما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا يحصى ، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة ، وخرجت من البحرين قرب مدينة سلا ، وذلك في المغرب الأقصى إلى مصر ماشياً ، ومن مصر إلى الرملة ماشياً ، ومن الرملة إلى بيت المقدس ، ومن الرملة إلى عسقلان ، ومن الرملة إلى طبرية ، ومن طبرية إلى دمشق ، ومن دمشق إلى حمص ، ومن حمص إلى أنطاكية ، ومن أنطاكية إلى طرطوس . ثم رجعت من طرطوس إلى حمص، وكان بقي عليّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته . ثم خرجت من حمص إلى بيسان ، ومن بيسان إلى الرَّقة ، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد ، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ، ومن النيل إلى الكوفة ، كل ذلك ماشياً .

وهذاالإمام الحافظ محمد بن طاهر المقدسي ، المتوفي في بغداد عام [٥٠٧ هـ] كان يمشي في ليلة واحدة قريباً من سبعة عشر فرسخاً ، وكان يمشي على الدوام بالليل والنهار عشرين فرسخاً ، والفرسخ بمشي القدم يُقدّر بساعةٍ

ونصف تقريباً ، وهو نحو خمسة كيلو مترات أو أكثر ، بمعنى أن هذا الإمام كان يمشي في اليوم والليلة قدْر مائة كيلومتر . وكان كثير السفر للحج والعمرة ماشياً ، وقد رحل إلى أكثر من أربعين مدينة ليسمع الحديث ، يقول عن نفسه . بُلْتُ الدم في طلب الحديث مرتين ، مرة ببغداد ، ومرة بمكة ، وذلك أني كنت أمشي حافياً في حر الهواجر ، فيلحقني لذلك التعب والمرض .

وما ركبت دابة قط في طلب الحديث إلا مرة ، وكنت أحمل كتبي على ظهري ، وما سألت في حال طلبي للعلم أحداً .

وانظر إلى هذا الإمام العظيم يعقوب بن سفيان الفارسي يقول : أقمت في الرحلة ثلاثين سنة ، وكنت في رحلة فقلّت نفقتي ، فكنت أدمن الكتابة ليلاً وأقرأ نهاراً ، فلما كان ذات ليلة كنت جالساً أنسخ في السراج ، وكان شتاءً ، فنزل الماء في عيني فلم أبصر شيئاً ، فبكيت على نفسي لانقطاعي عن بلدي وعلى ما فاتني من العلم .

فغلبتني عيناي ، فنمت فرأيت النبي ﷺ في النوم ، فناداني : يا يعقوب لم أنت بكيت ، فقلت : يا رسول الله ذهب بصري فتحسرت على ما فاتني ، فقال لي : ادن مني فدنوت منه فأمر يده على عيني كأنه يقرأ عليها ثم استيقظت فأبصرت ، فأخذت نسخي وقعدت أكتب » .

شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – له ما يربو على أربعمائة مصنف من كنوز العلم ، وكان يكتب ويؤلف في اليوم ما يعجز عنه الناسخ في أسبوع .

الإمام ابن عقيل – رحمه الله – يتحدث عن همته وقد جاوز الثمانين عاماً فيقول : « إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة ، وبصري عن مطالعة ، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره ، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عمر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين » ، لقد كان لسان حاله يقول :

مـا شـاب عـزمي ولا حـزمي ولا خلقي
ولا ولائـي ولا ديـنـي ولا كـــــــــرمـي
وإنما اعـتـاض رأسي غـيـر صـبـغـتـه
والشيب في الرأس غير الشيب في الهمم

والسـيـوطي – رحـمـه الله – وصلت مـؤلفـاته حـوالي ستمائة مؤلف غير التي رجع عنها ومحاها .

وهذا سماحة الإمام عبد العزيز بن باز – رحمه الله – كان آية في الهمة ، أعجوبة في العطاء ، كَثُرت مؤلفاته ، وعظُمت كتاباته ، وتنوعت عطاءاته ، وتظافرت بركاته ، ومنذ أن بلغ الحلم إلى أن جاوز التسعين بل إلى آخر ساعة من حـيـاته وهو في عطائه المتـجـدد ، وعلمـه المتـدفق ، ونصحه الدؤوب ، ويكفـيـه مـدحاً أنه غادر الحياة الدنيا وليس على ظهرها مثله أو من يضاهيه .

يا من رأى مـــثله أو من يضـــارعــه
فليـــأت بين الملا يزري بأقـــوالي

يا رائد العلم في هذا الزمان ويا
مجدد العصر في علم وأعمال
وحاتم في عطاياه وجودته
في بحركم لا يساوي عشر مثقال
في الجود مدرسة ، في البذل مملكة
في العلم نابغة ، أستاذ أجيال
الحق مذهبه ، والنصح يعجبه
والذكر يطربه يحيا به سالي
العلم مؤنسه ، والله يحرسه
ما كان مجلسه للقيل والقال
بالنص فتواه ، بالرفق ممشاه
من فيض تقواه مخشوشن الحال
لم ينتقص أحداً ، لم يمتلىء حسداً
لم يفتتن أبداً بالمنصب العالي
العين دامعة ، والكف ضارعة
والنفس خاشعة من خشية الوالي

obeikandl.com

المال ينفقه ، والوعد يصدقه
والشهد منطقه مستعذب حال
يا درة العصر يا بحر العلوم فما
رأت لك العين من ند وأمثال
حقاً فقد عرف التاريخ كوكبةً
مضيئة من صناديد وأبطال
مثل ابن حنبل أو مثل ابن تيمية
أو البخاري في إسناده العالي
لكننا يا حبيب القلب نبصرهم
كأنما مثلوا في شخصك الغالي [١]

وإن ما وصلت إليه أمتنا اليوم من الهوان ، وما نالها من الذل لهو بسبب سقوط الهمم ، وتردي العزائم ، وخور القوى ، وبرود الأذهان .

(١) وإذا أردت المزيد من أخبار الشيخ العجيبة فعليك الرجوع إلى كتاب (إمام العصر) الذي ألفْتُه عن سماحته .

obeikandl.com

لقد خيّم الكسل على شباب الأمة وشيبها ، فقعد بهم عن الواجب ، وحدا بهم إلى الخمول ، ونزل بهم في عسكر الموتى ، فهم أموات غير أحياء ، لهم عقول لا تفكر، وهمم لا تنتج ، وقلوب لا تفقه ، وعيون لا تبصر .

٣ - الكسل الدعوي :

وهذا من أخطر مظاهر الكسل ، وأفتك أمراض العصر، حيث تهاون كثير من الدعاة ، وتخاذل عدد من الناصحين، وتقهقر فئام من المربين ، في وقت نشط فيه الباطل ، وتطاول فيه الخنا ، واستفحل فيه البهتان ، وقوي أعوان الشيطان .

ماتت الهمم ، وفترت العزائم ، وخارت القوى ، وتجمدت المشاعر ، وثلجت الأحاسيس إلا من رحم الله ، لدرجة أن أصبح بعض الدعاة لا فرق بينه وبين سواه ، لا قلب يتمزق ، ولا فؤاد يتحرق ، ولا وجه يتمعر ، ولا نصح يبذل ، ولا جهد يسدى ، ولا علم ينشر . ركود مطبق ،

obeikandi.com

ونعاس في الأرواح ، ونوم في القلوب ، تهاون العالِم في علمه تعلُّماً وتعليماً ، وفرّط الخطيب في خطبه ، ونام على منبره ، وزرع النوم في القلوب ، والوهن في الأجساد، والبرود في الأعصاب ، بخطبه الباهته ، ومواعظه البارده، ومشاعره الميته ، وفرط المربي فيمن بين يديه ، وتهاون المسئول عن مسئوليته ، وعطل الكاتب قلمه ، وحنط الشاعر قصيدته ، وأخلد الداعية إلى الشهوات ، واثاقل إلى الأرض ، وفرط في الواجب والفرض إلا من رحم ربك .

والدعوة هي قلب الدين النابض ، ولسانه الناطق ، ووجهه المشرق ، فإذا عُطّلت وتلاشت ، فما ظنك بمن توقف قلبه ، وجمد لسانه ، وطمس وجهه . ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** ﴾ . [الزخرف : ٤٤]

إن الدعاة إلى الله تعالى هم الغيث الهنيئ لواحات القلوب ، ومراتع النفوس ، إن هَمَوْا عليها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وإن أمسكوا فهو القحط والجدب ، والدمار والخراب ، والهلاك واليباب ، هم سقيا

الرحمة لا سقيا العذاب ، هم القائمون لله بالحجة ، والسائرون على المحجة ، والمناضلون عن الشريعة ، والسائرون على البصيرة، أرض لم يشع فيها نورهم أرض مظلمة ، وبلاد لم يعبق فيها أريجهم بلاد معتمة ، هم الوابل الصيب الطيب ، فإن لم يكن وابل فطل ، إلا أن هذا الوابل الصيب والغيث الهنيء قد يندفع بقوة ، وينحدر بكثافة ، ويرعد ويبرق ويتدفق ويزمجر ، ويهدر وينذر ، ويقتلع الأشجار ، ويدحرج الصخور ، ويهدم المزارع ، ويلحق الأضرار ، ويجلب الأخطار ، ويتلف الأرواح ، ويبث الأتراح ، ويتحول من نعمة إلى نقمة ، وقد يمسك ويشح ، فتجدب الأنهار ، وتذوي الأزهار ، وتموت الأشجار ، ويهلك الحرث والنسل ، ولكن الخير كل الخير ، والرواء كل الرواء ، والهناء كل الهناء هو في هطول ذلك الغيث بقدر ، وتدفقه برفق ، وانسيابه بهدوء ، يُطعم ولا يهدم ، ويغدق ولا يُغرق، ويُخصب ولا يُغضب ، ويطرب ولا يُخرب ، هنيئاً مريئاً سحاً غدقاً سقيا رحمة لا سقيا عذاب ، ديمةً تهمي ، وسحائبَ تروي ، ومزناً تحيي ،

وهكذا يكون العاملون للإسلام على بصيرة .

إن الدعوة إلى الله تعالى فرض على كل مسلم ، وواجب على كل مؤمن ، لا يعفى منها أحد ، ولا يعذر عنها أحد ، فهي أصل معظم ، وأمر مقدم ، هي طريق الرسل ، وديدن المصلحين ، وسبيل المفلحين .

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ فلم يقل أنا وعلماء أمتي ، أو أنا وهيئات الأمر بالمعروف ، أو أنا والرجال .. أو غير ذلك ، بل هي سبيل وسبيل كل من اتبعني ، وسار على نهجي ، واقتفى أثري ، فمن أراد اتباع النبي ﷺ ولم يدع إلى الله على بصيرة فليس بمتبع حق الاتباع ، فكل مسلم عليه أن يدعو إلى الله تعالى على حسب طاقته ، وعلى قدر علمه ، ولو كانت آية مفردة ، أو حديثاً واحداً ، « بلغوا عني ولو آية » .

[أخرجه البخاري : ٣٤٦١]

ولقد امتدح الله هذه الأمة ، وبين أن سبب تفضيلها ، وأساس تكميلها ، وعنوان خيريتها أنها آمرة بالمعروف ،

ناهيـة عن المنكر ، متـعـاونة على البـر ، متـآزرة على المعروف : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ . [البقرة : ١١٠]

وما ضعف المسلمون ولا ذلوا ولا هانوا إلا بتفريطهم في واجب الدعوة ، وتضييعهم لنشر الملة ، وتخاذلهم عن حمل الرسالة وأداء الأمانة .

٤ - الكسل السياسي :

أصبحت حالة المسلمين اليوم تصديقاً لقول الشاعر :

ويقضى الأمر حين تغيب تيمٌ
ولا يستأذنون وهم شهود

تخلفوا عن سياسة الأمور ، وتقهقروا عن إدارة الحياة ، اشتغلوا بالتوافه عن صناعة الحياة ، لا رأي ينفع ، ولا صوت يُرفع ، ولا حكم يسطع ، يتلقون مسيرة حياتهم ، وترتيب نظامهم ، وتوجيه مسارهم من غيرهم ، محافل دولية ، ومجامع أممية ، واتحادات عالمية ، فيها كل أحد ،

وتستوعب كل أحد إلا العرب والمسلمين ، فهم خارج الدائرة ، وآخر القافلة ، وفي ذيل القائمة ، لا تسمع شكواهم ، ولا ترفع بلواهم ، ولا تقبل دعواهم ، وما ذلك إلا بسبب الذل الذي ألفوه ، والقعود الذي امتهنوه ، والهوان الذي تجرعوه ، فضعف أمرهم ، وتلاشى مجدهم ، وخفت ذكرهم ، وذوى صيتهم ، وتحطمت قوتهم ، فالرأي فاشل ، والجسد خامل ، والعقل ذابل ، وكأنهم لم يكونوا في يوم من الأيام أصحاب السيادة ، وأرباب القيادة، وملوك الريادة .

يا أمة غفلت عن نهجه ومضت
تهيم من غير لا هدي ولا علم
تعيش في ظلمات التيه دمرها
ضعف الأخوة والإيمان والهمم
يوماً مشرقة يوماً مغربة
تسعى لنيل دواء من ذوي سقم
لن تهتدي أمة في غير منهجه
مهما ارتضت من بديع الرأي والنظم

obeikandl.com

ملح أجاج ، سراب خادع ، خور
ليست كمثل فرات سائغ طعم
إن أقفرت بلدة من نور سنته
فطائر السعد لم يهو ولم يحم

إن أمة الإسلام بحاجة ماسة إلى سياسة نيّرة ، وعقول خيّرة ، ترسم لها السبل ، وتجلي لها الطرق ، وتنير لها الظلم ، انظر إلى اليهود ، انظر إلى الصليبيين ، انظر إلى مؤلفاتهم .. إلى أفكارهم ، إلى صحفهم ، إلى قنواتهم ، إلى إذاعاتهم ، ستجد عقولاً كبيرة تشربت بالفهم السياسي ، والوعي الدولي الذي يخدم مصالحهم ، ويرتقي بشعوبهم ، ويمكن لدولهم ، مع ما تحمله سياساتهم من مكر وكيد ، وخُبث وجور ، وظلم وبغي ، أما نحن فإن ديننا يدعونا إلى إعمال الذهنِ ، وإذكاء الفهم ، وحسن التدبر ، وجميل التأمل ، سواء في دعوتنا ، أو نصحنا ، أو جدالنا ، أو إقناعنا ، أو تعاملنا مع الآخرين ، أو سياساتنا ، وما عرفت الدنيا ولا تزين الوجود بإنسان كان أحسن سياسة وأبعد نظراً وأثقب فهماً وأشد ذكاءً وأصدق

فراسة من محمد ﷺ .

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له
وأنت أحييت أجيالاً من العدم

ولو لا توقد ذهنه ﷺ وحسن سياسته بعد الله تعالى ما قطفت الدنيا ثمار هذه الدعوة المباركة ، وما تزين الوجود بأنوار هذا الدين القويم .

ولقد كان ﷺ يعوّد أصحابه على إعمال الذهن ، وتفتيق الفكر ، وإبداء الرأي ، يشركهم في الرأي ، ويشاورهم في الأمر ، ويسدد أقوالهم ، ويوجه آرائهم ، ويهذب أفعالهم : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ . [الجمعة : ٢]

٥ - الكسل العسكري :

إن أمة الإسلامة أمة المجد والقوة ، والعزة والفتوة ، أمة زلزلت عروش الكفر ، وأرغمت أنف الشرك ، ومرّغت

obeikandi.com

جسد الطغيان ، كان أبناؤها فرساناً بالنهار رهباناً في الليل، بذلوا أرواحهم ، وقدموا أنفسهم ، وأسالوا مهجهم على حد السيوف ، فدانت لهم الأرض ، ورضخت لهم الدنيا ، واستسلم لهم المجد .

إن هذا الدين دين العزة والرفعة والكرامة والقوة ، والشجاعة والفتوة ، والهمة والخطار ، والعزيمة والإصرار ، والصبر والثبات ، والشدة والعتاد ، والمنعة والجهاد ، فالله عز وجل هو (القوي العزيز) ، وهو (ذو القوة المتين) ، وله القوة جميعاً ولا حول ولا قوة إلا به ، ولا راد لأمره ، ولا مانع لحكمه ، ولا غالب لجنده ، يذل من يشاء، ويعز من يشاء ، وهو على كل شيء قدير ، وإذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ . [آل عمران : ٢٧]

والملك الذي اختار جل وعلا لتبليغ وحيه ، وتعليم كتابه لنبيه ﷺ هو مَلَكٌ قوي أمين ، قال تعالى عنه : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ، وقال تعالى : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ . [التكوير : ٢٠]

وقد أمر الله عز وجل أنبياءه وأتباعهم أن يأخذوا وحيه بقوة ، ويتلقوه بعزيمة ، فقال تعالى لبني إسرائيل : ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ، وأمر موسى عليه السلام أن يأخذ ما آتاه بقوة : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ . [الأعراف : ١٤٥]

وقال تعالى ليحيى – عليه السلام – : ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ . [مريم : ١٢]

والكتاب الذي أنزله الله عز وجل على النبي ﷺ كتاب القوة ، ويجب أن يؤخذ بقوة ، وهو أقوى من كل كتاب مضى ، وهو المهيمن عليها جميعاً : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾

[المائدة : ٤٨] ، فهو قوي في أمره ، قوي في نهيه ، قوي في سبكه ، قوي في لفظه ، قوي في روعته ، قوي في نهجه ، قوي في حجته ، قوي في أثره ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ [الحشر : ٢١] ، قوي في معناه ، قوي في مبناه ، قوي في نفاده إلى القلوب وأخذه بالنفوس : ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾ [المزمل : ٥] ، ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ**﴾ . [الرعد : ٢٦]

إن الوحي الذي تنزل به المَلَكُ القوي من الملِك القوي لا يليق أن يؤخذ بضعف ، ويتناول ببرود ، ويقابل بكسل، ويتلقى بعجز .

ولقد أخذ ﷺ كتاب ربه ، وهدي مولاه بقوة فائقة ، وعزيمة نافذة ، وهمة عالية ، ويقين واثق ، وصبر جازم ، وتطبيق حازم ، حفظه حفظاً جميلاً ، ورتله ترتيلاً ، وتبتل به تبتيلاً ، ولم يحد عنه فتيلاً . تشربت نفسه الزكية بالقرآن ومعانية ، والوحي ومراميه ، فسرت قوة

القرآن في بدنه ، وامتزجت بدمائه ، ومضت في عروقه ، فإذا به قوي الجسم ، قوي الفكر، قوي العزيمة ، قوي المبدأ ، قوي العدل ، قوي الصبر ، قوي الأمانة ، قوي العبادة ، قوي الجهاد ، قوي الحجة ، قوي البلاغة ، قوي الإيمان ، قوي الأثر .

وكان الصحابة – رضي الله عنهم – إذا اشتدت الحرب، واحمر البأس، وحمي الوطيس ، يتترسون برسول الله ﷺ .

أقبلت بالحق يجتث الضلال فلا
يلقى عدوك إلا علقم الندم
أنت الشجاح إذا الأبطال ذاهلة
والهندواني في الأعناق واللمم
فكنت أثبتهم قلباً وأوضحهم
درباً وأبعدهم عن ريبة التهم

وهكذا بث هذا المنهج الأقوى ، والهدي الأزكى ، والخلق الأسمى في أرواح أصحابه ، فإذا بقوة الوحي ،

obeikandl.com

وجدية الهدي ، وعزيمة الرشد ، تسري في أرواحهم ، وتمتزج بخلجاتهم ، وترتقي بهممهم ، وتعتلي بضمائرهم، وإذا بهم رهبان بالليل فرسان بالنهار ، نبذوا الجهل بقوة ، وتمردوا على الضيم بقوة ، وجاهدوا الأنفس والأهواء بقوة . قاتلوا الأعداء بقوة ، ونشروا الهدى بقوة، وصانوا الإيمان بقوة ، وأرهبوا الأعداء بقوة ، وأخذوا هدي ربهم بقوة، فهو الذي يهتف بهم قائلاً : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ ، وقائلاً جل وعلا : ﴿ **وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٢٩] ، وقائلاً جل وعلا : ﴿ **فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** ﴾ [محمد ٣٧] ، وقد وعدهم بأن يضعف أعداءهم فقال تعالى : ﴿ **ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ** ﴾ [الأنفال : ١٨] وأخذوا توجيه نبيهم بقوة ، فهو الذي لقنهم في القوة دورساً ، وأحيا بالتوجيه نفوساً .

أحيا بك الله أرواحاً قد اندثرت
في تربة الوهم بين الكأس والصنم

مـــحــــابر وســـجـــلات وأنـديـة
وأحـــرف وقـــواف كن في صـــمـم
نفـضت عنهـا غـبـار الذل فـاتقـدت
وأبـدعـت وروت مـــــا قلـت للأمم

كـان ﷺ يعلمـهـم الحرص على القـوة بقـوله بعـد أن رسـمـهـا لهـم بفـعله : « المؤمن القـوي خـيـر وأحب إلى الله من المؤمن الضـعـيف وفي كل خـيـر ، احـرص على مـا ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز » . [أخرجه مسلم وأحمد]

وكان يستعيذ بالله من العجز والكسل والهوان ، وكان يسـأل الله تعـالى بقـوله : « ومـتـعنا بأسـمـاعنا وأبصـارنا وقواتنا ما أحييتنا » .[أخرجه الترمذي : ٣٥٠٢]

لقـد أخذ أولئك الأبطال الوحي بقـوة فأفعـموا به همة وطمـوحـاً ، وزادوا به نقـاءً ووضـوحـاً ، وتابوا إلى الله تـوبة نصـوحـاً ، فـزادهـم قـوة إلى قـوتهـم ، وهمـة إلى همـتـهـم : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ . [هود : ٥٢]

هكذا انطلقت تلك الأمة القوية ذات الهمم العالية ، والأرواح الزاكية متوكلة على القوي العزيز ، فإذا بها تذهل الزمان ، وتحير الدهر ، وتدهش التاريخ ، تهاوت أمام عزمها الدول ، وتلاشت أمام قوتها القوى .

وجن جنون الفــــرس والروم إذ رأوا
خــيــولاً على الأمــواج تمضي بآســاد
هوى عرش كسرى وانقض ملك قيصر
ونادى منادي الحق في الحضر والبادي
وكم راية في الصين والهند تعــتلي
تحدث عن أحـفـاد سـعـد ومـقـداد
دعــاة إلى التـوحـيـد والعلم والرضـا
لجند رسـول الله من خـيـر أحـفـاد
أنرنا ظلام الكون بالعلم والهــــدى
وحــسن النهى في ظل وحي وإرشـاد
ســرى عطرنا في الأرض واهتــزت الرُّبا
على نغــمــات الحق من خـيـر وراد

مـغــاوير نأبى الذل والضــيم والخنا
وينبـــذ من ديواننا كل شـــراد

لم تكن قوتنا مجرد جيوش جرارة ، وسيوف بتّارة ، وفتوح عسكرية للمدن والقلاع ، تزول إن زالت الجيوش ، وتذهب إن ذهبت القوة ، بل كانت قوتنا وفتوحنا قبل ذلك فتوحاً للعقول ، وتحريراً للقلوب ، بقيت وستبقى ما بقي الزمان ، وسطع النيران ، لقد أشرقنا بإسلامنا في كل أرض ، وسطعنا بإيماننا في كل صقع ، إنها قوة الإسلام ، وهيبة الإيمان ، وهداية الرحمن .

يقول أحد المؤرخين الأجانب : « بقوة واحدة ونجاح واحد زحف العرب على زعماء الروم وفارس ، وفي عشر سنوات من حكم عمر أخضع العرب لسلطانه ستة وثلاثين ألفاً من المدن والقلاع ، وهدموا أربعة آلاف كنيسة ومعبد للكفار ، وأنشؤوا أربعة عشر ألفاً من المساجد ، وعلى رأس قرن من هجرة محمد من مكة امتد سلطانه من الهند إلى المحيط الأطلانطيكي ، ورفرف علم الإسلام على أقطار

مختلفة نائية كفارس وسورية ومصر وأفريقية وإسبانيا » .

ويقول آخر : « بعد مائة سنة حمل هؤلاء الخاملون لأنفسهم قوة عظيمة ووجدت الدول النصرانية نفسها من أقصى أوروبا إلى أقصاها منذرة مهددة بحضارة شرقية مبنية على دين شرقي » .

لقد كانت قوة المؤمنين قوة نيرة ، وعزيمة خيرة ، وشدة راشدة ، وهمة ماجدة ، أسعدت البشرية ، وأفادت الإنسانية ، قوة أحيت النفوس ، وأبهجت القلوب ، وآنست الضمائر ، وأنارت البصائر ، وطمست معالم الظلم، وبددت مراتع الجور ، قوة نشرت العدل ، وبثت الطمأنينة ، ورفعت الهم ، وطردت الغفلة . لم تكن قوة لغرض السيطرة ، ومجرد الهيمنة واستعراض العضلات ، وأكل الضعفاء ، وقتل الأبرياء ، وزرع الشحناء ، ونهب الخيرات ، وابتزاز الثروات ، بل هي القوة الربانية ، والهمة الإيمانية ، والعزيمة الإنسانية ، تعلم الجاهل ، وتنبه الغافل ، وتنشر العلم ، وتنبذ الجهل، وتعين الضعيف ، وتنصر

المظلوم ، وتغيث الملهوف ، وتكسب المعدوم ، وتعز الذليل ، وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، هكذا كانت قوتنا ، وهكذا كنا يوم أن كانت الدولة دولتنا ، قوة في عدل ، وشدة في لين ، وحزماً في رفق ، وعزة في تواضع فلما أن ضيعنا مبادىء العزة ، وهجرنا أسباب القوة، وجفينا دروب الهمة ، ورضينا بالزرع ، وأخلدنا إلى الأرض ، وأخذنا بأذناب البقر ، واستسغنا الذل واستمرأنا الضعف ، وتعودنا على الهوان ، سلط الله علينا من لم يخفه فينا ولم يرحمنا ، ففرضوا قوتهم ، ونشروا هيمتنهم، فأذلوا عزتنا ، ونكسوا رؤوسنا ، ومزقوا شملنا ، وهدموا قوتنا ، وانتهكوا حرماتنا ، وخطفوا مقدساتنا ، ونشروا الرعب في صفوفنا ، وأصبح الرأي ما يرون ، والأمر ما يأمرون ، والرضا ما يرتضون .

لقد تاهت بعض الأمم اليوم بقوتها على الناس ، ورأت أنها أخذت بزمام القوة ، وأمسكت بخطام العزة ، فالرأي رأيها ، والأمر أمرها ، والحكم حكمها، تتبجح بقواتها ،

وتباهي بآلاتها ، وتتحدى بعددها وعتادها ، ولكنها قوة عابرة ، وهيمنة مؤقتة ، وسلطان خادع ، لأنها قامت على الظلم ، وبنيت على الجور ، وأسست على الغدر ، تكيل بمكيالين ، وتزن بميزانين ، كم دمر بأسبابها من أمم ، وكم قتل من بشر ، وكم نشر من مرض ، وكم أضيع من حق ، وكم ظلم من شعب ، وكم شرد من أطفال ، وكم انتهك من أعراض ، وكم أهينت من كرامات ، وكم سلبت من ثروات ، إنها قوة ثوبها الكبر ، ودستورها الظلم ، وعنوانها المكر ، ومنهاجها الكفر : ﴿ **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا** ﴾ [الطارق : ١٧] ، ﴿ **وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ** ﴾ . [البقرة : ١٦٥]

إن القوة الناجحة ، والهمة الرابحة هي التي تجمع قوة الجسد وقوة الروح، وذلك ما تميزت به قوة المسلمين في ماضيهم .

ملكنا فكان العدل منا سجية
فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وتستمرئون الظلم فينا ونحن من
غدونا على الدنيا نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا
فكل إناءٍ بالذي فيه ينضح

أما قوة أعداء الله اليوم فهي قوة الجسد ، قوة العدد ، قوة العتاد ، ولكن الأرواح خربة ، والقلوب ميتة ، والأنفس متهالكة ، والضمائر مهترئة : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ .

لقد سبقتها أمم كثيرة غرتها قوتها ، وأعجبتها كثرتها، فلما حادت عن الحق ، وتألت على الدين ، وحاربت الفضائل ، واستكبرت في الأرض ، صب الله عليها بأسه ، وأنزل بها مقته : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴾ . [فصلت : ١٦]

قال تعالى : ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ . [الرعد : ٣١]

ولقد جاء النداء الرباني للنبي ﷺ أن ينذر الكفار والمكذبين ويحذرهم بأس الله تعالى وبطشه ، وأن لا تغرهم قوتهم ، ويرديهم استكبارهم ، وليأخذوا العبرة ممن سبقهم : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

[فاطر : ٤٥]

ويقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ .

[غافر : ٢١]

ويقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ . [غافر : ٨٢]

ولقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بأن يبذلوا وسعهم ، ويجتهدوا طاقتهم ليظهروا بمظهر القوة ، ويتترسوا بحصون الشجاعة ، فقال جل وعلا : ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾. [الأنفال : ٦٠]

أعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. كل نوع من أنواع القوى ، وكل ميدان من ميادين العزة ، قوة الدين ، قوة التقوى ، قوة العلم ، قوة الفكر ، قوة العزيمة . إن كل مسلم مسئول عن تفريطه في قوة المسلمين ، وتدني عزيمتهم، وتلاشي هيبتهم ، فإن التزام المسلم بأوامر الله في نفسه وفي أهل بيته وفيمن يعول لهو أول مظهر من مظاهر القوة ، وأعظم ركن من أركان العظمة .

إننا أضعف أمة الآن في القوى المادية ، ولم يبق لنا إلا

obeikandl.com

القوى الروحية ، قوة الإيمان ، قوة الأخلاق ، قوة العفاف ، فلنحافظ عليها ، ولنحارب بها ، ولنتخذ منها عدة في وجوه أعدائنا ، ولنعمر قلوبنا باليقين ، وأرواحنا بالثقة.

إن سر قوتنا في التزامنا بديننا ، وتعلقنا بربنا ، واعتصامنا بمولانا ، وتوحيدنا لصفوفنا ، فهو الحبل الأقوى، والسلاح الأمضى ، فمتى رث الحبل ، وتقطع السبب ، هوينا إلى الحضيض، وبقينا في القاع ، فنحن أهل الماضي المجيد ، خرجنا من ألف معركة بالنصر المبين ، وملكنا الدنيا ألف سنة، وكنا فيها ظاهرين ، فلنفخر بماضينا ، ولنثق بحاضرنا ، ولنعلم أن أعداءنا ما غلبونا ولن يغلبونا بقوتهم ، ولكن بضعفنا وانقسامنا وتفرقنا . إن ألف مليون قطة أو فأرة لو هجمت على الغرب لأقضّت مضجعه ، وأفزعت قلبه ، وزرعت الرعب في أوصاله ، فكيف بألف مليون مسلم تنبض قلوبهم بالتوحيد ، وتهتف أرواحهم بالإسلام ، يملكون أعظم قوة ، ويتميزون بأمضى سلاح ، وهو سلاح الإيمان بالله ، ولكنه سلاح معطل ، وسيف مغمد، وعتاد مهمل ، فلو أخرج من

جرابه، وغسل من ترابه ، وصقل حده، وأحسن استعماله، لفعل الأعاجيب ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ . [الحج : ٤٠]

فالمنطق في كل زمان ومكان هو منطق القوة ، والأمة الضعيفة والدولة الهزيلة ليست أهلاً لسيادة ، ولا مكاناً لريادة ، ولا ناشرة لهداية ، ولا قامعة لغواية ، ولا رافعة لولاية ، والأمة التي ترضى بالضعف ، وتقبل بالهوان ، وتطأطئ أمام العجز والكسل ، ليست من الله في شيء ، فهي بغيضة الفعل ، خاسرة النصر ، تعيسة الحظ ، عديمة النفع، ممحوقة البركة ، ممزقة الأشلاء ، مبددة الآراء ، ولن يعود لهذه الأمة مكانة ، ولن يصبح لها كرامه ، ولن تستعيد مهابة إلا بالقوة الجازمة ، والهمة الحازمة ، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ . [الكهف : ٩٥]

ولا يعني ذلك أن تهب لمعركة خاسرة ، أو ترتمي في نزال غير متكافئ مع ذوي القوة والعتاد ، ولكن يجب أن تثوب الأمة إلى رشدها ، وتعود إلى دينها ، وتبحث عن

obeikandi.com

أسباب القوة فتهيئها ، وعما تهدم من صروحها فتبنيها ، وما وقع من حصونها فتعليها .

وإن قوة الأمة من قوة الفرد ، فكل مسلم مسؤول عن ضعف الأمة ، محاسب عن هوانها ، فلو ربينا أنفسنا وأهلينا على القوة والعزة ، والهمة والعزيمة ؛ لأثمرت التربية ، وتحققت الأمنية ، فهذا ربنا جل وعلا ينادينا آمراً لنا أن نعد للأعداء كل ما في استطاعتنا من قوة ، وما في نفوسنا من عزيمة ، وجاءت القوة مطلقة لتشمل كل صغيرة وكبيرة مما يكون قوة للأمة ، ودعماً للدولة .

يجب أن نهتم ببناء قوتنا ؛ قوة إيمانية ، وقوة فكرية ، وقوة جسمية ، وقوة علمية ، وقوة مالية ، وقوة أخوية ، وقوة اقتصادية ، وقوة صناعية ، وإنه لمن العبث أن يبحث المسلمون عن قوة ، ويسألون عن مهابة ، وهم الذين حملوا على أكتافهم معاول التهديم ، وسلوا سيوف التحطيم ، سياسات حائرة ، وآراء طائشة ، وإعلام مهترئ، وتنافس على الحطام ، وتسابق على الفتات ،

وتنصل من الدين ، وبعد من الشرع ، وتجاف عن الهدى، وحب للترف ، وميل إلى الهوى ، وخلود إلى الكسل .

فإذا بالضعف يسري في العروق ، ويمتزج بالدماء ، ضعف يهيمن على الشيب والشباب ، والرجال والنساء ، ضعف في الأجسام ، وضعف في الأفهام ، وضعف في الهمم ، وضعف في الدين .

فلنأخذ بأسباب القوة ، ولنكن من أربابها ، ولنجتهد لطرق أبوابها في يقين وإيقان ، وعدل وإحسان ، وتوحيد وإيمان ، والدائرة بأمر الله لنا ، والمستقبل ينتظرنا ، والمعمورة تشرئب لرؤيتنا ، وإن الكفر لا يخيفنا مهما أعد عدته ، وأضمر عتاده ، واستعرض عضلاته ، فليس على الإسلام منه خطر ، بل لا يزداد بالمحن إلا قوة ، وبالمكر به إلا فتوّة ، لقد حاول جبابرة الأرض، واجتهد طغاة الدنيا منذ الوهلة الأولى لظهور هذا الدين إلى يومنا هذا ، حاولوا النيل من قدسيته أو الحد من انتشاره ، أو استئصال شأفته، أو سحقه وأتباعه ، فكانوا حطباً لاشتعال وقوده ، جمراً

لإيقاد بخوره ، بدأ بالكفار والمشركين والمنافقين واليهود والقرامطة والروم والمجوس والصليبيين ، والصهاينة والعلمانيين والبعثيين ، إلى آخر تلك السلسلة العفنة ، فأين هم وأين الإسلام ، غرقوا في بحره ، وابتلعتهم أمواجه، وتهشمت رؤوسهم على صخوره ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ . [المجادلة : ٢١]

ومهما علا الباطل وانتفش ، وارتقى وانتعش فإن الحق إذا جاء دمره تدميراً : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ . [الإسراء : ٨١]

وإن غر أقواماً بريق وقوة
وما ردهم عن ظلمهم نقد ناقد
فإن الخنا والظلم يهوي بأهله
ويردي وإن طال المدى كل صاعد
وسوف يظل الذل والعار وصمة
على وجه أعداء الهوى والمعابد

ونحن لنا من قـــوة الله ملجـــأ
نخـــيف به الأنذال من كل مـــارد
ننازل أعــداء الهــدى في عــقــيــدة
فـــلا فـــوز إلا في ظلال العـــقـــائد

فيا من استضعفت بقوة الظلم أبشر فالنصر حليفك ، والفوز ينتظرك ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا** ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، ويا هذه البلاد المسلمة المتفيئة في ظلال شرع الله عيشي في أمان ، وامضي في هدوء ، وأمّلي الخير ، وأعدي ما استطعت من قوة ، ولا تخافي الأعداء ، فأنت في كنف القوي العزيز بإذن الله تعالى .

ويوم أن كانت الهمم عالية ، والأنفس متوثبة ، والجهود متظافرة ، والأيدي واحدة، هزّت أُمَّةُ الإسلام الدنيا ، وتربعت على عرش المجد ، وقطفت أحلى ثمار العز والكرامة ، فلما ماتت الهمم ، وضعفت العزائم ، وخارت القوى ، وهيمن الكسل ، وتسلل الوهن ،وعظم التخاذل ،

obeikandi.com

وعمّ التفرق ، وساد الشتات ، وصلنا إلى هذا الحال المزرية، والمكانة الهابطة ، والوضع المتردي ، تألّب علينا الأعداء ، وتكالبت علينا الأمم ، واستهانت بنا الشعوب .

قال ﷺ : « يوشك الأُمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » ، فقال قائل : أومن قلة نحن يومئذ؟ ، قال : « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن» فقال قائل : يا رسول الله ، وما الوهن؟ ، قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » . [الصحيحة : ٩٥٨]

فلو عاش كل فردٍ من المجتمع قائماً بواجبه ، مدركاً لمسئوليته ، متحملاً لأمانته ، لأفلحنا وأنجحنا فلا بد من همم متآزرة ، وجهود متعاونة ، وأفئدة مشبوبة ، وعزائم عارمة ، ورغبات ملحّة ، ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ . [آل عمران : ١٢٩]

٦ - الكسل الأسري :

الأسرة هي المجتمع الصغير فإذا صلحت صلح المجتمع الكبير ، وقد ضاعت كثير من الأسر ، وتشتت أعداد من البيوت ، وفسد فئام من الأبناء ، وتعست أعداد من البنات ، بسبب الكسل في التربية ، والتقاعس عن المتابعة، والتفريط في الواجبات ، إن ربَّ الأسرة راعٍ في أسرته يرعاها ويصونها ويحفظها ويذود عنها ، لا يهدأ له بال ، ولا يغمض له جفن ، ولا يغفل له فكر ، ولا تفتر له عزيمة ، وإن لم يكن كذلك فأسرته عرضة للضياع ، ونهب للدمار ، وفريسة للضلال ، فهناك فتن محدقة ، وذئاب عاوية ، ووحوش مفترسة ، وكلاب متربصة ، ومغريات معروضة ، وشهوات مشبوبة ، فإذا كسل الراعي ، وفرط الحارس ، ونام الرقيب ، وتهاون الحسيب ، فلا يلومن امرؤٌ إلا نفسه .

إن الإيمان والتقوى والحب والتعاون والتآخي والترابط والتراحم والتربية والتزكية من الأب إلى الأم إلى الأبن إلى البنت إلى الإخوة فالأخوات فالأعمام فالأخوال فالأقارب

فالأصهار فالجيران ، وهكذا إلى أن تعم هذه المثل . ولكن إذا يبست أشجار المودة ، وماتت جذور المحبة ، وتكسرت جذوع التآخي والترابط والتراحم ، وماتت جميعاً في مهدها ، وقتلت في منشأها ، فكيف يرجى وصولها لمن يتطلع إليها ، ويرنو لرؤيتها من البعيدين عنها ، ولذلك فإن بداية صلاح المسلمين هو بأن يبدأ كل مسلم بنفسه ، ويسعى لإصلاح أهل بيته ، فإذا استشعر كل منا مسئوليته، وقام بواجبه ، وأمن بدوره ، فذلك هو الفلاح الأعظم ، والنجاح الأكبر .

إن حماية الأسرة أمانة كبرى ، ومسئولية عظمى ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ . [الأنفال : ٢٨]

وقال ﷺ : « كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ، الرجل راعٍ ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية ومسئولة عن رعيتها » . [أخرجه البخاري : ٢٥٥٨]

وروي عنه ﷺ : « إن الله سائل كل راعٍ عما استرعاه حفظ أم ضيّع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » [الصحيحة : ١٦٣٦] ، فتربية الأسرة وحفظ البيوت أمانة عظمى ، ومسئولية كبرى ، وويل للمفرطين فيها ، المتهاونين بها .

يقول ابن القيم – رحمه الله – : « فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء غاية الإساءة ، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل فساد الآباء وإهمالهم لهم، فأضاعوهم صغاراً فلم ينفعوا أنفسهم ولم ينفعوا آباءهم كباراً ، كما عاب أحدهم ولده على العقوق ، فقال: يا أبت إنك عققتني صغيراً فعققتك كبيراً ، وأضعتني وليداً فأضعتك شيخاً » .

وإن قيام المرأة الصالحة بدورها مع زوجها في إقامة الأسرة ، وتربية البيت ، ليرتقي بها إلى أعلى الدرجات ، وتعدل بعملها هذا عمل المجاهدين ، وأجر المحافظين على الجمع والجماعات ، ففي الحديث الصحيح أن أسماء بنت يزيد بن السكن – رضي الله عنها – أتت النبي ﷺ

obeikandi.com

فقالت : إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولي وعلى مثل رأيي ، أن الله بعثك إلى الرجال والنساء ، فآمنا بك ، واتبعناك ، ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات قواعد بيوت ، وإن الرجال فضّلوا بالجمعات وشهود الجنائز والجهاد ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم وربينا أولادهم أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله؟! ، فالتفت ﷺ إلى أصحابه فقال : « هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه » فقالوا : لا يا رسول الله ، فقال ﷺ : « انصرفي يا أسماء وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل أحداكن لزوجها ، وطلبها لمرضاته ، واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت » . [أخرجه البهقي وابن عساكر]

فيا لها من بشرى كريمة ، وهدية عظيمة للمرأة المؤمنة التي تجتهد في التربية ، وتبالغ في العناية ، وتكدح في الرعاية ، فلا تتكاسل في التربية أو تتهاون في التنشئة ، أو تلقي بالمسئولية على غيرها ، فهي حاملة الراية ، وعنوان الهداية ، وإن لوظائف المرأة خطورتها وأهميتها ، ولا نبالغ

إذا قلنا إن وظائف المرأة أدق وأعمق ، وأشق وأخطر ، وإن توحيد القيادة في البيت أمر ضروري حتى لا يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم ، وتضيع أسرتهم ، ويتحطم أبناؤهم ، فالرجل مسئول عن البذل والكدح والعمل والإنفاق والحماية ، والمرأة مسئولة عن التربية والتنشئة وتعطير البيت بالحب ، والسكن بالجمال ، والعشرة بالحنان .

وإن قوامة الرجل لا تعني التسلط والتكبر والغطرسة والأنانية والاستبداد ، بل هي قوامة الحب والتشاور والتعاون والتناصح والتآزر والتفاهم ، فيجب على الأب والأم والأسرة جميعاً أن يتعاونوا فيما بينهم لتحقيق الخير ، ودحض الشر ، وحسن التربية ، وروعة التنشئة ، كما قال تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ . [المائدة : ٢]

والنبي ﷺ ضرب المثل الأعلى في التعاون مع أهله ، والتفاهم مع زوجاته ، وكان يعاونهم ويستشيرهم ،

ويكون في خدمتهم ، ويعطف عليهم ، ثم يقول لأصحابه : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .

[أخرجه الترمذي : ٣٨٩٥]

٧ - الكسل الصحي :

الكسل مرض قاتل ، وداء فتاك ، ووباء مجهز ، والنفس أمّارة بالسوء ، تكره المسئولية ، وتحب الراحة ، وتميل إلى الشهوات من النوم والأكل والشرب وغيرها ، والكسل ضد الوقاية ، فإن أكثر الأمراض المنتشرة ، والأوبئة المتعددة هو من عدم الحركة .

وإن قلة النشاط ، وكثرة الركود ، وعدم الحركة ينتج عنها أضرار وبيلة ، وأمراض خطيرة ، فهو يسبب الجلطة ، ويساعد على تصلب الشرايين ، وظهور السمن ، وضعف القوى ، وخور الأعصاب ، وترهل الجسم ، وضعف الهمة ، وقلة العطاء ، ورداءة الأداء .

والكسل الصحي هو الذي قعد بكثير من الناس عن

obeikandi.com

المتابعة الصحية لأنفسهم ، ففوجئوا بأمراض فتاكة ، وأوبئة خطيرة ، وكل شيء هو بقضاء الله تعالى وقدره ، ولكن بذل الأسباب مطلوب ، واتخاذ الوقاية مرغوب ، وهذا الزمن الذي تعددت فيه الأمراض ، وانتشرت فيه الأوجاع ، يجب على المسلم أن لا يهمل نفسه ، وأن لا يتقاعس عن بذل الأسباب ، التي يحمي بها نفسه ، ويتابع فيها أمره ، ولا يتهاون في أخذ الأدوية ، والالتزام بمواعيدها ومقاديرها .

ومن الكسل الصحي التهاون في تطعيم الأطفال ، والكشف عليهم ، والاطمئنان على سيرهم الصحي ، فهم أمانة في الأعناق لا حول لهم ولا طول ، ولا يعرفون مصلحة أنفسهم ، وكم من كوارث نزلت ، وأمراض فتكت ، وأطفال أعيقوا ، والسبب الرئيسي في ذلك هو الكسل والإهمال ، والتهاون والتفريط ، والتثاقل والتسويف .

ومن الكسل الصحي تهاون كثير من أطباء المسلمين

obeikandl.com

الذين يملئون الأرض مع إخوانهم المسلمين في أنحاء الدنيا وأقطار المعمورة . إن على الأطباء المسلمين أن يقوموا بواجبهم ، وأن يشكروا نعمة الله عليهم ، وأن يسخروا مواهبهم وعلمهم في رضوان الله تعالى ، والدعوة إليه ، ونفع عباده .

إن الأمراض الفتاكة ، والأوبئة المزعجة ، تضج بها كثير من بلدان المسلمين ، وتعج بها أعداد من دول المسلمين . إن هنالك من إخواننا وأبنائنا وأخواتنا وأمهاتنا من ينامون على رصيف الأمراض ، ويتهاوون في مهاوي الأوبئة ، يلتحفون العناء ، ويفترشون البكاء ، لا يجدون يداً حانية ، ولا قلباً رحيماً ، ولا طبيباً باراً ، ولا آسياً محتسباً وسوف يسألنا الله عنهم.

إن أعداء الإسلام ، وأطباء الضلال ، عرفوا أهمية هذا المجال ، فاتخذوه للغي سبيلاً ، وللكفر دليلاً ، ولذلك كثرت الجميعات الطبية التنصيرية وغيرها ، ومع الأسف أنها انتشرت حتى في كثير من البلدان الإسلامية ، جاءت

تحت ستار الطب والمعونة والمساعدة والعلاج ، وهي تعطي الدواء بيد وتقدم سموم الكفر وغزو العقل بيد أخرى ، فأين أطباء المسلمين ، وأين ذوو الغيرة والدين ، والجادين المشمرين ، ومع كل ذلك فهنالك جهود محمودة ، وجمعيات طيبة مشكورة ، يقوم عليها أطباء نجباء ، وعلماء فضلاء ، ودعاة أوفياء .

وأذكر أنني في يوم من الأيام وأنا في دراستي العليا دعيت في مكة المكرمة للمشاركة في حفل لجمعية أطباء العيون الخيرية الإسلامية ، فرأيت لها من الجهود النيرة ، والأعمال الخيرة في مجال الطب ، واحتساب الأجر في أبناء المسلمين في أنحاء الدنيا ما يطرب القلب ، ويمتع الفكر ، ويزرع بوارق الأمل ، وقد تحيرت في ذلك اليوم بماذا أشارك في مؤتمر عن علاج العمى ، فكانت لي قصيدة عنواها (نور البصيرة) ، وهي من أوائل قصائدي :

قالوا بلا بصر يمشي فقلت لهم
عمى البصيرة أقوى من عمى البصر

obeikandl.com

إن العمى أن ترى النهج القويم فلا
تُهدى إليه وتبقى حائر الفكر
إن العمى أن يعيش القلب في شبه
كظلمة الليل في غي وفي نكر
إن العمى أن ترى الإنسان مظلمة
حياته عاش بين الكأس والوتر
إن العمى أن ترى العينين مبصرة
لكنها من هدى الباري بلا بصر
وانظر عماية من ضلوا وما انتفعوا
بأعين ماثلتها أعين البقر
عين ترى كل مافي الأرض وامتنعت
من نور خالقها ياخيبة النظر
ليس التقى مظهراً أو حسن هندمة
وليس في أعين فتانة الحور
إن التقى أن يعيش القلب ممتلئاً
بنور مولاه يأبى ظلمة الخور

وأفــضل الناس عند الله أعظمـــهم
تقـوى فـمـا قـيـمـة الأشكال والصـور
قـد عـاتـب الله خـيـر الناس في رجل
أعــــمى وخلده في الآي والســــور
وكم إمــام لنا قـــد كـــان ذا ضـــرر
في أول العـــمـــر أو في آخـــر العُـــمُـــر
كـــان ابن عـبـاس أعــمى وهو عـــالمنا
وترجـمـانُ الهـدى فـاسـأل عن القـمـر
قـــتـــادةٌ وعـطاءٌ ســـادةٌ نُجُب
والتـرمـذي الذي قـد سـاد في الأثر
والعكبــري وأبو حـــيـــان والذهبي
والشـــاطبي الذي قـــد جـــاء بالدرر
وذو المصنف فـــانظر في مـــصنفـــه
له ابن حنبل كم يلتـــذُّ بالســـفـــر
أئمـــةٌ كُـــثـــر لم يُحـــصـــهم قلمي
وجفَّ عن وصف أمـجـاد لهم حـبـري

وانظر لباز التقى والعلم تبصره
بدون عينين قد أربى على البشر
عبدالعزيز الذي تهفو النفوس له
وتشتري نظرة في وجهه النضر
كالبحر في علمه السامي وذو خلق
كالمسك كالعنبر الفواح كالزهر
وقبله ابن حميد فارس بطل
مضى وسيرته من أطيب السير
جلا بنور الهدى ما غاب عن مقل
فالنور للقلب ليس النور للبصر
فرحمةٌ يا إماماً عاملاً ورضاً
يغشاك يا طيّب الأنفاس والأثر
إن كنت فارقتنا جسماً فما برحت
روح الهدى والتقى معطاءة الثّمر
ما مات من خلّف الأبطال قد نهلوا
من حُسن تأديبهم من منهل عطر

obeikandl.com

وقبلهم شيخهم مفتي الديار فهم
مثل النجوم وذاك الشيخ كالقمر
ذاك الهزبر إِذا ما صال صولته
رأيت أعداء دين الله كالهرر
شيخٌ أبيٌّ قويٌّ في مبادئه
وكل ضعف وزيف فهو منه بري
وانظر فتاوى التقى ما كان يُصدرها
ممزوجةً بانهزام النفس والخدر
أئمةٌ ظهروا بالعلم واشتهروا
ما ردّهم ضرر عن قمّة الظفر
الطيب معدنهم والنصح ديدنهم
نعم الرجال فهم فخرٌ لمفتخر
بُشرى لمن عاش والقرآن قائده
يمشي به في دروب الخير والظفر

ومن الكسل الصحي عدم الاهتمام بنظافة الجسم والمنزل والسيارة والمكتب والشارع والمأكل والمشرب .. وغير ذلك .

وإن صحة الأجسام وجمالها ونضرتها من الأمور التي وجه الإسلام إليها عنايةً فائقة ، واعتبرها من صميم رسالته .

وليست صحة الجسد وطهارته صلاحاً مادياً فقط ، بل إن أثرها عميق في تزكية النفس ، وتمكين الإنسان من النهوض بأعباء الحياة ، وما أحوج أعباء الحياة إلى الجسم الجلد ، والبدن القوي الصبور .

وإن عناية الإسلام بالنظافة والصحة جزء من عنايته بقوة المسلمين المادية والأدبية ، فهو يتطلب أجساماً تجري في عروقها دماءُ العافية ، ويمتلىء أصحابها فتوةً ونشاطاً ، فإن الأجسام المهزولة لا تطيق عبئاً ، والأيدي المرتعشة لا تقدم خيراً .

فعلى المؤمن أن يحافظ على نفسه ليحقق الخيرية بقوة الجسم ، وقوة الهمة ، وقوة العمل ، فإن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير فاحرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز .

٨ - الكسل المالي :

قال تعالى : ﴿**هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ . [الملك : ١٥]

وقال تعالى : ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ**﴾ . [الجمعة : ١١]

هذا الدين معين لا ينضب للنشاط الموصول ، والحماس المذخور ، واحتمال الصعاب ، ومواجهة الشدائد ، ومصارعة الأخطار ، والكسل المالي يتمثل في تخاذل كثير من الناس عن طرق أبواب الرزق ، وقرع منافذ الكسب ، استسلموا للفقر ، ورضوا بالإهانة ، وارتموا في أحضان المسكنة ، وتقلبوا في جحيم البؤس . فتور والتواء، برود واستخذاء ، تخاذل واستجداء ، لقد كان الأنبياء أصحاب حرف ، وذوي مهن ، وأرباب تجارة ، فقد كان نوح وإبراهيم عليهما السلام يحترفان التجارة ، وكان موسى أجيراً عند شعيب ، وكان داود حدّاداً ، وسليمان خوّاصاً ، وأبناء يعقوب تجاراً ، وإدريس خياطاً - عليهم

السلام جميعاً – وكان محمد ﷺ راعياً وجمالاً وتاجراً ، فهم بعيدون عن الكسل ، منزهون عن البطالة والخلل .

ولقد كان أغلب الصحابة – رضوان الله عليهم – تجاراً، فصانوا أنفسهم ، وحفظوا وجوههم ، وأعزوا مكانتهم ، وأطعموا الطعام ، وجادوا على الأقارب والأرحام ، وجهزوا الجيوش التي بدد الله بها الظلام ، ونشر الإسلام ، وكان ﷺ يعلمهم عزة النفس، ورفعة الهدف ، ودلائل الكرامة ، وأن اليد العليا خير من اليد السفلى .

يقول ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم أحبلة ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

[رواه البخاري : ٢٠٧٥]

ويقول ﷺ : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود ﷺ كان يأكل من عمل يده » . [رواه البخاري : ٢٠٧٢]

عن مالك بن نضلة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« الأيدي ثلاثة : فيد الله العليا ، ويد المعطي التي تليها ، ويد السائل السفلى ، فأعط الفضل ولا تعجز عن نفسك » . [رواه أبو داود : ١٦٤٩]

فيجب على المسلم أن يمشي في مناكب الأرض ، ويسعى في كسب الرزق ، ويجتهد في صيانة النفس ، وكم من أناس قتلتهم البطالة ، وقعد بهم التهاون ، وخيم عليهم الكسل ، ولو شمروا واجتهدوا ، وبذلوا وعملوا ، لأسعدوا أنفسهم ، وصانوا أعراضهم ، ونفعوا مجتمعهم ، وخدموا أمتهم .

ومما يلحق بالكسل المالي التهاون في توسيع دائرة النشاط المالي ، بحيث لا يجتهد المرءُ في تنمية دخله ، وتقوية نفسه ، والتهاون في متابعة الأعمال والأنشطة والعاملين ، والأولى بالعبد إذا عمل عملاً أن يتقنه ويحسنه ، ليكون امرءاً ناجحاً ، وعنصراً صالحاً ، فالمال في اليد المسلمة ، غنيمة للأمة ، وتقوية للشوكة ، ورفعةٌ للمجتمع .

obeikandl.com

obeikandl.com

ومن أهم مظاهر الكسل المالي الكسل في الإنفاق والتهاون في البذل ، والشح في العطاء ، والبخل بالمعروف ، مع أن السياق للكرم ، والتنافس في العطاء صفة العظماء ، وسمة الكبراء ، وديدن الأتقياء ، والله عز وجل هو أكرم الأكرمين ، وأعظم المتقين ، وهو يحب لعباده صفة الكرم ، ويحثهم على البذل ، ويجزل عطاءهم ، وينمي صدقاتهم ويخلف عليهم : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ .

[سبأ : ٢٩]

ولقد كان ﷺ أكرم الناس ، وأجود الناس ، وأحسن الناس ، يقول جابر بن عبد الله : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال : لا . [متفق عليه]

كأنك في الكتاب وجدت لاءً
محرمة عليك فلا تحلّ
إذا حضر الشتاء فأنت دفءٌ
وإن حضر المصيفُ فأنت ظلٌّ

ولن ينسى التاريخ كرم أبي بكر الصديق ، أو جود

عمر ، أو عطاء عثمان ، أو بذل عبد الرحمن بن عوف ، أو قصة أبي طلحة ، أو حكاية أبي الدحداح .. وغيرهم .. وغيرهم من أولئك العظماء الذين شمروا للإنفاق ، وسابقوا للعطاء .

ولكنني هنا أنتقي قصة واحدة من قصصهم العظيمة ومواقفهم الكريمة لرجل لم يخلد للكسل ، أو يستسلم للعجز ، أو يرضى بالقعود ، حينما رأى قوافل المنفقين ، وفلول الباذلين ، ومسارعة المتصدقين ، وهو فقير معوز ، مسكين معدم ، براه الهم ، واعتصره الأسى أنه لم يجد ما ينفق في سبيل الله ، فسلك نهجاً غريباً ، وصنع أمراً عجيباً ، ذلك هو أبو عقيل رضي الله عنه قام من عند النبي ﷺ فذهب إلى أناس وأجر نفسه عليهم يجرّ لهم الماء على ظهره ليلته تلك على أجرةٍ قدرها صاعان من تمر ، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله هذا صاع من تمر بت ليلتي أجر بالجرير - الحبل - الماء حتى نلتُ صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما لأهلي ، وأتيتك بالآخر ، فقال له ﷺ : انثره في الصدقة ، فسخر منه المنافقون ، وقالوا :

إن الله ورسوله لغنيان عن صاعك هذا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [التوبة : ٧٩] . [أخرجه الطبراني : ٤ / ٤٥ ، وأصله في الصحيحين]

يا روعة الصادق الصديق حين أتى
بماله يا رسول الله فاستلم
لم تبق للأهل شيئاً يفرحون به؟
فقال أبقيت فضل الواحد الحكم
وانظر لعثمان كم جيشٍ تجيشه
أمواله دون تقتير ولا ندم
ما ضر عثمان بعد اليوم ما اقترفت
يمناه بشرى لذي النورين بالقمم
وذاك شيخ وقور جاء في أدب
إلى نبي الهدى في ثوب محتشم
يا سيدي يا رسول الله مات يداً
كريمةً واستمع مني إلى كلمي

obeikandi.com

أقــرضت للواحـــد الديان رائعـــتي
حــديقــتي بالذي فــيــهــا من النَّعَم
مـــبـــارك يا أبا الدحــــداح منزلة
في جنة الخلد بين الحـــور والحـــشم
أمــا ابن عــوف فــلا تُنسى فـضــائله
تبــــقى كـــــدر بديع اللون منتظم
قــوافل في ســـبـــيل الله أرسلهــا
لنصــرة الدين أو إكســاب ذي عــدم
أولئك القــــوم نعم القـــوم كم بذلوا
وأنطقـــوا بالعطايا كل ذي صـــمم
جـــادوا بأفـــضل من مـــالٍ وأبنيـــةٍ
سَقــو ثمـــاراً ليـــحـــيـا دينهم بدم
جـــادوا بأرواحــــهـم لله في هـمـمٍ
وأعـين عـن دروب المجــــــد لـم تـنـم

٩ - الكسل الوظيفي :

فما عُطلت مصالح الناس ، وأخّرت أعمالهم ، وضيعت أوقاتهم ، وكَثُرت شكاياتهم ، إلا بأسباب الكسل والتهاون ، والاستهتار والتقاعس من كثير من الموظفين ، وعددٍ من المسئولين ، وقد يُعطّل الإنسان أسبوعاً كاملاً أو شهراً بانتظار كرمٍ أحد الموظفين ليكتب سطراً ، أو يملأ فراغاً ، أو يضع توقيعاً ، وذلك الكسل خيانة للأمانة ، ومخالفة للديانة ، وخور في تحمل المسئولية ، وكم من الموظفين الذين يتقاضون رواتب لو حوسبوا على قدر أعمالهم لما استحقوا الربع منها ، فليعلموا أن ما أخذوه بغير حق هو من الكسب الحرام الذي لا يبارك فيه ، ولا يسلمون من تبعاته في الدنيا والآخرة ، أَمَا يخشى الكسلان من دعوات الناس؟ فكم من إنسانٍ يرفع يديه في جوف الليل ، أو في حرّ الظهيرة ، ووهج الشمس ، يدعو على من عطّل مصالحه وأخّر معاملته من غير سبب يذكر ، أو عائق يعوق .

ومما يلحق بالكسل الوظيفي عدم بذل الجهد ، وشحذ

الهمة في الترقي الوظيفي ، والتقدم الاجتماعي ، والتنافس الشريف ، إن على الموظف المسلم أن يسابق وأن يجاهد ، وأن يترقب وأن يحرص على التميز الذي يرتقي بشخصيته ، فإنه كل ما علا منصبه زاد نفعه ، وعظم دوره، وسُمعت كلمته ، وارتفعت مكانته .

ومما يلحق بالكسل الوظيفي ما يكون من كثير من الموظفين بعد التقاعد ، حيث يرضى بعضهم بالخمول ، ويصاب بالذهول ، ويسقط في يده فيقعد مع القاعدين ، ويخمد مع الخامدين ، بينما كان الأولى به أن يبدأ مشواراً جديداً ، وينطلق منطلقاً حميداً ، فالمؤمن ليس في حياته تقاعد ، والمسلم ليس من ديدنه التقاعس ، وهذه قصيدة لي كتبتها في أحد احتفالات تكريم المتقاعدين ، أورد بعضها لما فيها من الطرف والفوائد :

رحيق أعمارهم جادوا به فإذا
شابوا عددناهم من جملة الهمل

اقعد تقاعد وعش ما عشت منعزلاً
مقشراً لنبات الثوم والبصل
إن التقاعد في سن العطاء غدا
موتاً لأربابه لكن على مهل
يعيش منه الفتى في ليل وحدته
معذباً غارقاً في هم مُنْعَزَل
قد ملت الزوجة الشمطاء مقعده
في وجهها وانبرت تهذي على الرجل
قم فارق البيت يا زوج البطالة يا
رأس الكآبة والتعقيد والعلل
من بعد أن كان أيام الدوام إذا
أوى إليها سلا بالرشف والقبل
تسقيه أحلى أفانين الوداد وما
يروقه من أغاني الحب والغزل
فأضحت اليوم تهذي بالسباب له
ترميه بالعجز والتفريط والخطل

obeikandi.com

obeikandl.com

تصيح في وجهه قم يا كسول إلى
غسل الفناجين والكاسات والحلل
من بعد أزكى فنون البذل بات على
رصيف دنياه محزوناً بلا شُغل
يمسي ويصبح دوماً في مراقبة
لجرّة الفول من مركاز عمٍّ علي
وربما مات لا يُدرى بميتته
إلا إذا ولولت أنثاه يا جملي
يا صاحب اللب لا تركن لأوسمة
خدّاعة وقعها بالغدر كالأسل
كم من مدير وأستاذ قضى زمناً
مفخماً واسع الألقاب ذا ثقل
وكان في الناس ذا صوت وهيلمة
أمسى كئيباً ضعيف الحال والحيل
كل الإدارات تسعى في وساطته
سم مرحباً يا طويل العمر والأجل

obeikandi.com

بعـد التـقـاعـد بات الكل ينكره
مـا من سـمـيـر ولا خل ولا شلل
وكـان بين كـبـار القـوم مـجلسـه
واليـوم أمـسى مع الغـوغـاء والسـفل
تلك المناصب لا يسلو بهـا أحـد
إلا تجـرع منهـا سـوء مـقـتـبل
إلا إذا صـانهـا من كل شـائبـة
من التـكبـر والإجـحـاف والميل
مـضى على مـا يحب الله في دأب
وحكـمـة تسـتـقى من سنة الرسل
أو كان في العلم إن العلم منصبه
باقٍ بعـيـدٌ عن الأدواء والفـشل
يا من تقـاعـدت قم للبـذل مـتـقـداً
وابدأ مـسـيـرة عـمـر يانع خـضل
لفظ التـقـاعـد لا تقـبل به لقـبـاً
قم جـدد العـهـد في بعـد عن الخـمل

صفا لك الجو والحمل الثقيل مضى
وأنت شهم فتي الروح لم تزل
نقل فؤادك في دنيا العطاء وفي
موارد العلم في حل ومرتحل
وانصب لمولاك وارغب في فواضله
في طاعة الله ما يشفي من الغلل
واعمل ليوم عظيم لا مناص لنا
منه فذلك يوم الرعب والوهل
يوم يشيب به الولدان من فزع
والمرء في الحشر عارٍ غيرُ منتعل
من لوعة الحر ماج الناس في عرق
والأم عن طفلها المحبوب في ذهل
وليس يغني عن الإنسان منصبه
ولا مباهاته بالمال والفلل
فاطلب من الله أن تحظى بخاتمةٍ
ميمونة في جنان الخلد والجزل

obeikandl.com

١٠ - الكسل الديني :

والمقصود بالكسل الديني هنا هو الكسل في العبادة ، مع أن كل أعمال المسلم دين يدين لله به كما بيّنا في أول هذه الرسالة ، إلا أن المقصود بالكسل الديني هنا الكسل في العبادة .

وهذا من أعظم الظواهر ، وأخطر العوامل ، بل هو السبب في كل كسل ، والموجد لكل تهاون ، يوم أن كسل المسلمون عن الطاعة ، وتهاونوا بالعبادة ، واندثر حبل الصلة بالخالق ، وانقطعت أسباب المودة مع العظيم ، وجفت أنهار المدد من الكريم ، أظلمت القلوب ، وضاقت الصدور ، وكسدت الأفهام ، وتشوشت الأذهان ، وكسلت الجوارح ، وذبلت النفوس ، فنحن أمة لا عز لنا إلا بالإسلام ، فمتى ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله ، فلا عزة لنا إلا به ، ولا رفعة إلا به، ولا فلاح ولا صلاح إلا به ، وإن الذين فجروا ينابيع العلم ، وأجروا أنهار المعرفة ، وتربعوا على هام المجد ، وعانقوا سماء العز ، كانت صلتهم بالله قوية ، ومحبتهم لدينه عميقة ، وعزتهم بكتابهم عظيمة ،

كانوا فرساناً بالنهار ، رهباناً بالليل ، يتزودون بالعبادة ، ويتقوون بالطاعة ، ويستعينون بالصلاة .

إن العبادة الجادة هي الطريق الأقوم لطرد الكسل ، ونفي الخمول ، وهي السبيل الأقوم لقطف ثمار السعادة في الدنيا والآخرة .

وحينما ضعفت الهمم عن العبادة ، وتقاعس الناس عن الطاعة ، بل وفرطوا في أركان الدين ، فضلاً عن واجباته ، وضيعوا أصوله فضلاً عن فروعه ، نزل بهم الكسل ، وخيم عليهم الخمول ، ودب فيهم الوهن الذي لا يزول إلا بعودتهم إلى ربهم .

انظر إلى أحوال كثير من المسلمين اليوم ، ركود مطبق، وإعراض مقيت ، وتهاون بغيض ، وكثير من هؤلاء اللاهين ، وأولئك المثبطين ، لا يحفظ إلا قصص الرخص ، ولا يعرف إلا أحاديث الراحة : « أفتان أنت يا معاذ؟ » ، « افعل ولا حرج » ، « ربك غفور رحيم » ، « الإيمان في القلب » ، وهكذا الحال عندهم ، إعراض عن العلم ، وإدبار

عن الخير ، تضييع للصلاة ، تهاون بالزكاة ، تكاسل عن الصيام والقيام ، غفلة عن الذكر .

وتجد أكثرهم آخرَ من يدخل المسجد ، وأولَ من يخرج منه ، باردُ الإحساس ، مثلج العواطف ، ميت الهمة ، مشتت الأفكار ، مبعثر الأحاسيس **﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾**[الكهف : ٢٨] ، كم من إنسان تدركه مواسم العبادة ، وتحل به أيام الطاعة ، ويدرك مجالات الخير ، فيضيعها بالكسل ، ويقتلها بالنوم ، ويقضيها باللهو ، ومع اللهو ، وللهو ، **﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾** .

[النساء : ١١٤]

وإليك بعضاً من خبر العباد السبّاقين ، والأولياء المتميزين ، الذين اجتهدوا في الطاعة ، وسهروا للعبادة ، لعل في ذلك ما يرفع الهمة ، ويقوي العزيمة ، ويشد من الأزر .

كان ﷺ إذا ذهب ثلث الليل قام ، فقال : « يا أيها

الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة ، من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » .

[رواه الترمذي وأحمد]

وكان ﷺ كثير الصيام ، وقد كان يظل اليوم الطويل في الحر الشديد صائماً ، وكان – أحياناً – يواصل صيامه ، وذلك خاصة بالنبي ﷺ ، ولقد كان يقوم الليل حتى تفطرت قدماه .

وتقول عائشة – رضي الله عنها – ، قام ﷺ ليلة من الليالي ، فقال : « يا عائشة ذريني أتعبد لربي » ، قالت : والله إني لأحب قربك ، وأحب ما يسرُّك ، قالت : فقام فتطهر ، ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بل حجره ، ثم بكى ، فلم يزل يبكي حتى بل الأرض .

[أخرجه ابن حبان : ٥٢٣ ، وصححه الألباني]

وجاء بلال يؤذن بالصلاة فلما رآه يبكي ، قال : يا رسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما

تأخر؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكورا ، لقد نزلت عليّ الليلة آياتٌ ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ » [آل عمران : ١٩١] . [الصحيحة : ٦٧ – ٦٨]

وكان أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رجلاً أسيفا ، إذا صلى بالناس لا تُكاد تسمع قراءته من كثرة بكائه وخوفه من ربه جل وعلا .

وكان في وجه عمر خطان أسودان من كثرة البكاء ، وكان يُسْمَع بكاؤه من آخر الصفوف ، وسمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور : ٧] فسقط مغشياً عليه ، وبقي أياماً مريضاً يزوره الناس ، وكان إذا أظلم عليه الليل يضرب قدميه بالدره ، ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم يا عمر؟ ، وكان ينعس وهو قاعد ، فقيل له : ألا تنام يا أمير المؤمنين؟ قال : « إذا نمت الليل ضيعت

حظي مع الله ، وإذا نمت النهار ضيعت رعيتي » وحين حضرته الوفاه يقول لابنه : « ضع خدي على التراب عل الله أن يرى حالي فيرحمني » .

بكى عمر الفاروق خوفاً وخشية
وقد كان في الأرض الإمام المثاليا
وقال بصوت الحزن يا ليت أنني
نجوت كفافاً لا عليَّ ولا ليا

وكان عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصوم النهار ويقوم الليل ، وكان إذا وقف على قبر يبكي حتى تخضل لحيته من البكاء ، وكان يذكر عنده الموت والجنة والنار أحياناً فلا يبكي ، فسئل عن ذلك فقال ، قال ﷺ : « ما رأيت منظراً قط إلا القبر أفظع منه » [رواه الترمذي] ، وقد روي عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ما اغتسل مرة واحدة واقفا بل كان يغتسل جالساً حياء من الله جل وعلا .

أما علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد كان صواماً قواماً فارساً بالنهار ، راهباً بالليل . صلى صلاة الفجر في يوم من

الأيام فجلس حزيناً مطرقاً ، فلما طلعت الشمس قبض على لحيته ، وبدأ يبكي ويبكي ثم قال : لقد رأيت أصحاب النبي ﷺ فما رأيت شيئاً يشبههم ، كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً بين أعينهم كأمثال ركب المعزى من كثرة السجود ، قد باتوا لله سجّداً وقياماً يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا طلع الفجر ذكروا الله فمادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهطلت أعينهم بالدموع والله لكأنّ القوم باتوا غافلين .

وكان رضي الله عنه يستأنس بالليل وظلمته ، فإذا أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، يميل في محرابه قابضاً على لحيته، ويتململ تململ الملدوغ ، ويبكي بكاء الحزين ، وينادي : يا ربنا .. يا ربنا .. يا ربنا .

وقد وصف المتقين بقوله : « ألا إن عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين ، وأهل النار في النار معذبين ، شرورهم مأمونة ، وقلوبهم محزونة ، وأنفسهم عفيفة ، وحوائجهم خفيفة ، صبروا أياماً قليلة ، لعقبى راحة

obeikandl.com

طويلة، أما الليل فصافون أقدامهم تجري دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى الله في فكاك رقابهم ، وأما النهار فظماء حُلماء بررة أتقياء» .

أما عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد كان صائماً ثم أُتي بطعام فقال : قتل مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وهو خير مني ، فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة إن غطي بها رأسه بدت رجلاه ، وإن غطي بها رجلاه بدا رأسه ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط . قد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام .

وأُتي له بعشائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في يوم من الأيام ، وكان صائماً، فقرأ قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ [المزمل : ١٣] ، فلم يزل يبكي حتى رفع طعامه وما تعشى .

ولما حضرت أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الوفاةُ بكى ، فقيل له: ما يبكيك ، فقال : والله ما أبكي على دنياكم ، ولكن أبكي لبعد المفازة ، وقلة الزاد ، وعقبة كؤود ، وأنني أصبحت

في صعود المهبط منه ، إما إلى جنة وإما إلى نار .

أما تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان من العباد الصوام القوام، وقد قام الليل كله بآية واحدة حتى أصبح ، وهي قوله تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾، وقد سأله رجل عن قيامه بالليل ، فغضب غضباً شديداً ، ثم قال : « والله لركعة أصليها في جوف الليل في السر أحب إليّ من أن أصلي الليل كله ثم أقصه على الناس » .

وتقول امرأة عمر بن عبد العزيز – رحمه الله ورضي عنه – قد يكون في الرعية من هو أكثر صلاة وصياماً من عمر ، ولكن ليس فيهم من هو أشد خوفاً وبكاءً من عمر، كان إذا صلى العشاء الآخرة جاء إلى بيته فألقى بنفسه في محرابه فلا يزال يبكي حتى يطلع الفجر .

بكى ليلة من الليالي بكاءً شديداً ، فبكت زوجه لبكائه ، ثم سمع أهله البكاء فبكوا كلهم لبكاء عمر ،

obeikandl.com

فسمع الجيران البكاء فبكوا ، وهم لا يدرون ما الذي يُبكي عمر ذلك البكاء ، والذي كاد يودي بحياته ، فلما سكن وهدأ قيل له : يا أمير المؤمنين ما الذي أبكاك فوالله لقد أشفقنا عليك؟ ، قال : تذكرت يوم القدوم على الله، ومنصرف الناس بين يديه ، فريق في الجنة وفريق في السعير، ولا أدري أين يُذهب بي، حتى كأن النار ما خلقت إلا له . وقيل عن عمر لم يُرَ مثلُ خوفه .

وكان الحسن البصري - رحمه الله ورضي عنه - صائماً فجيء له بكوزٍ من الماء ليفطر عليه ، فلما أدناه إلى فيه بكى ، وقال : ذكرت أمنية أهل النار وقولهم ﴿ **أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ** ﴾ [الأعراف : ٥٠] وكان يقول : إن المؤمنين قوم ذلّت والله منهم الأسماعُ والأبصارُ والأبدانُ حتى حسبهم الجاهل مرضى ، وهم والله أصحابُ القلوب ألا تراه يقول : ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** ﴾ [فاطر : ٣٤] ولقد كابدوا في الدنيا حزناً شديداً أبكاهم وأحزنهم وهو الخوف من النار .

ويقول : والله ما صدّق عبد بالنار قط إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وإن المنافق لو كانت النار خلف ظهره لم يصدق بها حتى يهجم عليها .

وذلك الفضيل بن عياض - رحمه الله - ، يقول إبراهيم بن الأشعث : ما رأيت أحداً كان خوف الله في صدره أعظم من الفضيل ؛ كان إذا ذَكَر الله أو ذُكِر عنده أو سمع القرآن ظهر به خوف وحزنٌ شديد ، وفاضت عيناه، وبكى حتى يرحمه من يحضره ويشفق عليه وكنا إذا خرجنا معه في جنازة لا يزال يعظ ويذكر ويبكي بكاءً شديداً وكأنه ذاهب إلى الآخره ، وكان يقول : رهبة العبد من الله على قدر علمه بالله ، وزهادته في الدنيا على قدر رغبته في الآخرة.

روي أنه رؤي يوم عرفة والناس يدعون ، وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة ، حتى إذا كادت الشمس أن تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء ، وقال : واسوأتاه منك وإن غفرت! .

obeikandl.com

وكان منصور بن المعتمد - رحمه الله - محباً للصيام والقيام حتى عاتبته أمه ، وقالت له : يا بني إن لعينيك عليك حقاً ، فلماذا لا تنام ؟، فقال لها : اتركيني فإن بين النفختين نوماً طويلا .

وكان أبو عثمان النهدي - رحمه الله - صواماً قوّاماً ، يسرد الصوم ، ويقوم الليل ولا يتركه ، وكان يصلي حتى يُغشى عليه ، رحمهم الله جميعاً رحمةً واسعة ، وجمعنا بهم في جنات النعيم .

لقد كان السلف الصالح يجتهدون في الأعمال الصالحة وقلوبهم وجلة ، وكانوا يتنافسون في أعمال البر حذراً من لوم النفس عند انقطاع العمل على التقصير ، قيل لمسروق - رحمه الله - : لو قصرت عن بعض ما تصنع من الاجتهاد ، فقال : والله لو أتاني آت فأخبرني أنه لا يعذبني لاجتهدت في العبادة ، حتى تعذرني نفسي إن دخلت النار أن لا ألومها أما بلغك قول الله تعالى ﴿ **ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾ [القيامة : ٢] ، إنما لاموا أنفسهم حين

صاروا إلى جهنم فاعتنقتهم الزبانية ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، وانقطعت عنهم الأماني ، ورفعت عنهم الرحمة، وأقبل كل امرىء يلوم نفسه .

وكان عامر بن عبد قيس يقول : والله لأجتهدن ثم والله لأجتهدن ، فإن نجوت فبرحمة الله وإلا لم ألم نفسي .

فهذا حال السلف الصالح ، وذلك هو الطريق الرابح ، أعمال جليلة ، وعبادة عظيمة وخشوع وخضوع ، مع خوف ووجل وإشفاق وخشية ، ولكن ﴿ **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَاب (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** ﴾ [الرعد : ٢١] .

تتجافى جنوبهم ... عن وطيء المضاجعِ
كُلّهم بين خائفٍ ... مستجيرٍ وطامعِ
تركوا لذة الكرى ... للعيون الهواجعِ
ورعوا أنجم الدجى ... طالعاً بعد طالعِ

واستهلت عيونهم فائضات المدامعِ
ودعوا يا مليكنا يا جميل الصنائعِ
أُعف عنا ذنوبنا للعيون الدوامعِ
أُعف عنا ذنوبنا للوجوه الخواشعِ
أنت – إن لم يكن لنا شافعٌ – خيرُ شافعِ

فلنشمر ولنجتهد ، ولنعمل ولنبذل ، ولنستمر على الطاعة ، ولنداوم على العباده ، ولنواصل في الخير . ولنحفظ صيامنا ، ولنحسن قيامنا ، ولنخرج زكاتنا ، ولنكثر صدقاتنا ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا خشيته ، وأن يعمر قلوبنا بخوفه ، وأن يوفقنا لطاعته ، وأن يؤمن خوفنا يوم لقياه .

١١ - الكسل في التوبة :

كثيرٌ من الناس نادم على حاله ، متألم على حياته ، غير راضٍ عن وضعه ، يعرف أنه على خطأ ، ويدري أنه في ضلال ، ويعلم أنه على خطر ، وهو يحدث نفسه منذ

سنوات خلت ، وأعوام مضت أنه سوف يتوب إلى ربه ، ويثوب إلى رشده ، ويصحح أخطاءه ، ويعالج أمراضه ، ويتدارك نفسه ، ولكن منعه الكسل ، وقعد به التسويف ، وأخّره التهاون ، والتوبة واجبة على الفور ، لازمة في الحال، لا يجوز تأخيرها ، ولا يسوغ التفريط فيها ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ . [النور : ٣١]

وهذا نبي الأمة ﷺ ينادي في الناس قائلاً : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فوالله إني أتوب في اليوم مائة مرة » .
[صحيح الجامع : ٢٨٨٢]

فلنبادر بالتوبة ، ولنعلن الندم ، ولنبدأ صفحة جديدة مع الله تعالى ، ومع كتابنا ، وسنة نبينا ، لنبدأ صفحة جديدة مع أنفسنا ، مع أهلينا ، مع مجتمعنا ، مع أمتنا ، ليبدأ كل منا بروح جديدة ، وقلب متوثب ، وعزم متوقد، كل في مجاله ، وكل في ميدانه ، العالم في علمه ، والمدرس في تدريسه ، والطبيب في طبه ، والمهندس في هندسته ، والموظف في وظيفته ، والتاجر في متجره ، والعامل في عمله ، والمرأة في بيتها ، والمربية في تربيتها ،

obeikandi.com

لننفض عنا غبار الكسل ، ولنمزق ستار الضعف ، ولنبدد ظلام الخمول ، ولنستمد العون والتوفيق من الله تعالى ، فهو القائل ، ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ . [العنكبوت : ٦٩]

obeikandl.com